نـافـذة

لا تغادر وليدها

تتدلى ذات صباح من عليائها
تقترب منه
تلفّه بجسدها المرهف
تعدّ له قهوة الصباح
وما بين لحظة وأخرى تغمره
حنانها فيّاض
جودها لا مثيل له
تضمه
تحنو عليه
تسقيه ماء الحياة
وعلى زقزقات الصباح تقول له:
تعال إليّ يا وليدي
خذ غذائي
ادخل إلى جوانيات روحي
لا لون لما أعطيك يا ولدي
لا رائحة له يا ابن قلبي
حلّق حيث شئت
ولا تنس يومي يا ولدي
لا لتكرمني.. بل لأجلك
وجه وجهك إليّ لأعطيك نوراً
لأزرعك ألقاً
لأرشك عطراً
لأمنحك أمومتي
تتدلى ذات لحظة
تكسوها خضرة
يلبسها اللون الزهري
معها يصبح ورديا جورياً
ويضمها وليدها إلى روحه
بك يا أم أصبحت
قهوتك غذاء روحي
نظرتك دعاء توفيق
لا تغيبي يا أم
أما جعلت لحياتك لوناً؟
لمَ تأخذين كل الألوان؟
مَن غرتك كان قوس قزح
من جبينك تشرق شمس الصباح
من عطائك تصبح الدنيا غذاء
لك يا أم اليوم
لك كل الأيام
أنا المنتظر عودتك
أترعتني حباً ذات صباح
سأمضي عمري منتظراً صباحاً آخر
الألق في عينيك من مختلف إلى مختلف
تسكبين في روحي روحك..
وأنا أنتظر صباح الياسمين
صباح الزهر
صباح قهوتك والهيل
أوجه إليك روحي لعلها تحيا
تطابق يوماك يا أم
تطابقت أيامك
يوم اللقاء.. ويوم الرحيل.. ويوم أم..
تمددي يا طهر أم
تمسكي بأهداب ما تبقى
لمسة لشعرات شعثة
سكب لروح خوفاً من انطفاء
وهبت ما عجز الكون عنه
ضياء عين أنت
نبض روح كنتَ
أيا أمي التي لم تبرح ذاتي
أتحرك بك إليك
لا تحملني قدماي
وبقامتك تستقبلين عبثي
أتعلق به
أتدلى على لطف قامتك
حبك يرفعني
أجاوز الجبال
أعلو على النباح
يبتعد صوت الديكة
تصلني الزقزقات إلى حيث رفعتني
أجاوز كل شيء
أخرج من الزمان
يعجز عني المكان
لأنك الأم.. لأنك العطاء
خبزك لا أحن إليه فهو معي
طعامك لا أشتاقه فهو لم يغادرني
أصابعك أتعشقها وهي تدللني
غذاؤك..
آه منك كم أنت كريمة..
لن أشيح النظر ولا أستطيع
لن أحب سوى ما تفعلين
لن أكره ما دمت أنت الحب الذي انزرع
على قمة عالية أرقب وترقبين
الأفق امتداد
الغد ينتظر الحنين
وأقف وحدي أرقب
وأنت تخرجين من خضرتك
من بحرك، من جبلك
تتدلين من سماء
وشتان بين أن تكوني أو ألا تكوني
هل أرى في غيابك ما أرى معك؟
هل أحيا معك كما في غيابك؟
لك كل الأيام
تطابقت أيامك
لأنك أنت
لأنك الزهر وربيعه وآذاره..
أنتظرك على حافة شوق وأمومة
قد تحطين على نافذتي
قد أراك هائمة بروحي
قد أدخل معبدك
هناك أصلي على قدميك ولا أغادر
أتوق لأصابع قدميك وهي تدور بحثاً عني
ألتصق بقدميك
تحوط يداك رأسي المتعب
وأسمعك
الحياة تبدأ غداً يا ولدي
امنحي الحب لعلها تبدأ
دون حب لا حياة
ودون حبك لا حب
كل يوم وأنت ال وله
كل مكان وأنت أرجوحة العشق
أرجوحة الأبد
وأغنية لا يوقفها الكره..
تتدلى..
تعطي ما تبقى
لكنها أبداً لا تغادر وليدها.

إسماعيل مروة

لشمس لا تغيب.. كل عام وأنتِ بخير

قرنوا الأم بالوطن وربطوا بينها وبين الأرض

رسخها كيالي من قعر المجتمع السوري الفقير.. وفتش المدرّس عن ملامح صورة والدته في وجوه القرويات

وائل العدس

شكلت المرأة عموماً، والأم خصوصاً، الموضوع الأساس في نتاجات المبدعين، على اختلاف وسائل التعبير التي يشتغلون عليها، بدءاً من الشعر، والموسيقا، والأدب، والفن التشكيلي، وانتهاءً بالصورة الضوئية من سينما، وتلفزيون، وإنترنت.. وغيره.
واستأثر موضوع الأم باهتمام مزاولي اللغات التعبيرية التقليدية التي رافقت بواكير الحياة الإنسانية، واستمرت مع متعاطي الإبداع، باللغات البصريّة الثابتة والمتحركة، التي جاءت مع التطور المذهل، لوسائل الاتصال المعاصرة، وانخراطها في الموضوعات الإنسانية الشفيفة التي اختزلت القيم الاجتماعية النبيلة والرفيعة والخالدة، في الحياة عموماً، وحياة الكائن البشري خصوصاً، وفي طليعتها يأتي موضوع (الأمومة) الذي تجسده صورة الأم مع أطفالها، ضمن حالات ووضعيات مختلفة، لكنها جميعها، تفضي إلى قيم إنسانية راقية وحميميّة وصادقة وجميلة هي: التضحية، الإيثار، الوفاء، الحنو، الحب، الدأب، التفاني، النضال، الإخلاص والعطاء بلا حدود.

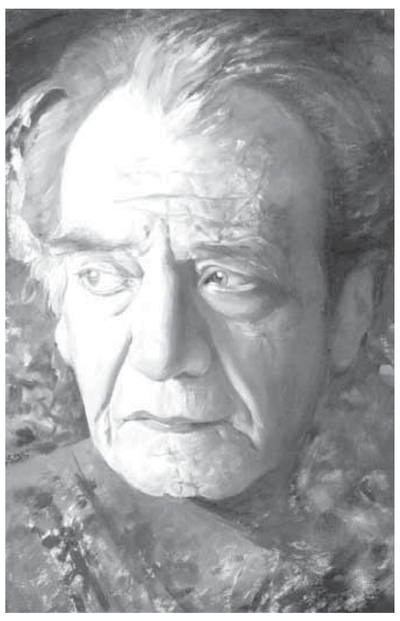
فاتح المدرس

لوحة «المادونا»

«الأم الصغيرة» للفنان روبيرتو فيروتزي ١٨٩٧

لؤي كيالي

> كانت الأم وما زالت في مقدمة الموضوعات التي تناولتها اللغات الإبداعية الإنسانية

رؤى متعددة

بتعدد رؤى وأساليب وتقانات الفن التشكيلي، تعددت صورة الأم، في الأعمال التي عالجتها. فبعض الفنانين التشكيليين صورها بشكل مباشر، تحنو على طفلها، أو تضمه إلى صدرها، أو تقوم بإرضاعه من ثديها بحنان وشغف، أو تلاطفه وتلاعبه وتعلمه، أو تهز له المهد، أو تنظفه، أو ترعاه وتناغيه، أو تحمله على ظهرها، أو في حجرها، أو تعانقه، أو تدافع عنه، أو تقاتل دفاعاً عن وجوده وعن بيتها.
ومنهم من عكس موضوع الأم بكل تفاصيله من الرموز والدلالات والقيم النبيلة، بشكل غير مباشر، مسقطين عليها معاني أسطورية مزجت بين الواقع والخيال، بهدف إظهار تعلقهم بهذا الرمز الذي وصل لدى البعض منهم حد التقديس، لما يمثله من قيم، فالأم نبع الحنان الذي لا ينضب، والبحر الذي لا يتعب من العطاء، وهي الصورة المثلى لنكران الذات والتضحية والتعب الصامت السعيد والعظيم.

الأم والوطن والأرض

وهناك من وجد في وقفتها الباسلة والمساندة لزوجها وأطفالها، في البيت ومكان العمل وأمام الأخطار الداهمة، رمزاً آخر من رموز وفائها وتضحيتها، كما ربطوا بينها وبين الوطن، فقرنوا اسمها باسمه، وهو ما جعلها تتحول إلى مرادف له، وإلى رمز خالد من رموزه. فهي أم الذين سقطوا من أجل أن ينهض الوطن ويبقى مصوناً، عزيزاً، كريماً، حراً، قوياً.
كما ربطوا بينها وبين الأرض، فالأم خزان الحياة الذي ما فتئ يضخ الحياة منذ وجدت الحياة، والأرض الوعاء الحاضن لمسببات استمرار هذه الحياة وديمومتها، تماماً كما هي الأم، صانعتها ومركز تناسخها وتجددها واستمرارها.
على هذا الأساس، صور الرسامون في رسومهم ولوحاتهم ومحفوراتهم المطبوعة الأم نداً للأرض وشبيهاً لها. فكما الأرض تنبت الحياة، وتوفر سبل العيش للإنسان، كذلك الأم، من حوضها تتدفق الحياة وتستمر، فهي صانعتها ورمز تجددها وتعاقبها.
هذه القيم العظيمة المجسدة في الأم، دفعت المبدعين كافة، وفي كل الأحقاب والأزمنة والأمكنة، إلى تخليدها في إبداعاتهم، وإبراز فضلها ودورها المهم في الحياة، محاولين بذلك، رد بعض جميلها. كان هذا على الدوام، في كل زمان ومكان، وسيبقى هذا الرمز الخالد، حتى نهاية الحياة، موضع تقدير وتقديس وتبجيل واحترام المبدعين كلهم.
في أعمال المبدعين، تحولت الأم إلى أنقى وأجمل وأعظم رمز في حياة الكائن البشري، واحتضنت أدفأ العواطف الإنسانية، واختزلت أنبل مهمة في الوجود. ولأن كل مبدع معني مباشرة بها، لأنها أمه، وزوجه، وأخته، وابنته، ورفيقته، وزميلته، وصديقته، فقد انعكست صورتها في نتاجه، على درجة عالية من الشفافية والصدق والحميمية والسمو شكلاً ومضموناً.
كانت الأم وما زالت في مقدمة الموضوعات التي تناولتها اللغات الإبداعية الإنسانية المختلفة، منذ صيرورة الإنسان الأولى وحتى يومنا، وهي باقية كذلك، ما بقيت الحياة، واستمر الوجود، وبقي الإنسان.

جميع العصور

موضوع الأمومة ظهر في مراحل الفن البدائي في مرحلة العصر الحجري الحديث لكن هذا التعبير لم يمح البعد الروحي وإنما كان الموضوع عبارة عن شكل فني فقط نظراً لواقع الإنسان آنذاك في المجتمع البدائي، وظهر في الحضارة القديمة المصرية، ما بين النهرين والهند والصين واليابان، ولم يكن له أي بعد تعبيري جار وإنما كان مجرد رسم امرأة مع طفل وزوج الفرعون، القيصر مع زوجه وأطفاله تحدد اسم المرأة وزوجها.
أما في العصور الوسطى فقد كان موضوع الأمومة ظاهراً على شكل مفهوم ديني أي كلوحة «المادونا» أو «أم السيد المسيح»، هذا الموضوع كان يحمل الصفة الدينية أو الأيقونة في الفن البيزنطي والروحي حيث نراها تحمل الطفل الذي يعانق أمه كلوحة «السيدة العذراء»، أو كما في أعمال الأيقونات في المدارس الروسية التشكيلية ومن أشهر رساميها «روغلوف» لكن فنانيها لم يوقعوا أعمالهم فبقوا غير معروفين.
في عصر النهضة أخذ مضمون الأمومة البعد الفلسفي والنظرة الشخصية فرسم كل فنان في عمله شخصيته وبعده الفكري والفلسفي، فأصبح موضوع (المادونا) ليس موضوعاً دينياً فحسب وإنما رسموا النسوة اللاتي عرفن من قبلهم، وكن الأمهات والوجوه الشرقية وخرجوا عن قوانين الأيقونة التي كانت تفرض مجموعة الألوان، ورسموا الأخوات على سبيل المثال رسم «فليبو ليبي» نحو مئة لوحة بعنوان (مادونا) ورسم قبلها زوجه وطفلة، وكانت هذه اللوحات متشابهة وقريبة من بعضها من حيث الأسلوب والموضوع.
أما في بدايات القرن العشرين وبداية الحرب العالمية الأولى ثم الثانية فقد رسمت الأعمال الحزينة، فقدان أم لولدها، أو الأم وهي تدافع عن أطفالها ضد الحرب والجوع والمرض والفقر.

سورياً

رسخ الفنان السوري لؤي كيالي صورة الأم والطفل المنبثقة من قعر المجتمع السوري الفقير بأسلوب لوني متقشف، أما فاتح المدرس فقد ظل طوال حياته يفتش عن ملامح صورة والدته في وجوه القرويات في الريف السوري حيث اكتشف جمال الطبيعة وآلام الفراق التي لازمته طوال حياته، ولعل الأحداث الأخيرة أعادت للأذهان الصورة المجيدة لأم الشهيد.

أصدق الأعمال

إن مراجعة متأنية لإبداعات الفنانين التشكيليين التي تناولوا فيها موضوع الأم، نجد أنها كانت أصدق الأعمال وأرقى الإبداعات التي تفتقت عنها رؤاهم وخيالاتهم. فهم معنيون مباشرةً بهذا الموضوع. عاشوه بكل جوارحهم وأحاسيسهم، لذا ظل موضوع الأم متوقداً في أحاسيسهم، لصيقاً بمراحل حياتهم كلها، وحاضراً في كل ركن ومحطة من حياتهم.
من أجل هذا، جاء تعبيرهم عنها غنياً بالعواطف الشفيفة، مفعماً بالقدسية والصدق والاحترام والتقدير.

حنانَكِ يا أمي!

أنس تللو

لهفُ نفسي على تلك الأشياء تشكو
بصمت، وتتألمُ بعمق، وتسألُ
بإلحاح... أين صاحبةُ الوجه
الباسم... أين صاحبةُ القلبِ
الرقيق... أين هي المؤنسة المجاملة ؛
أين تلك التي كانت تقلب بضحكتها
الأتراح أفراحاً... تلك الأم العظيمة
المثالية، ولكن لا جواب ولا كلام، لقد
تاهت أمي في عالم الصمت... وغرقت
ذكراها في دنيا السكينة.

■■■

يا أمي:
لقد رحلت إلى السماء... وتركت صورتَك معلقةً علىَ الجدار ومحفورةً في قلبي...
إن السماوات المفتوحةَ التي تُبعدني عنك ليس اتساعُهَا باتساع الحزنِ الفسيحِ الذيَ أشعر به وحدي، وأعيشه وحدي، ودون أن يشعرَ بي أحد.
لقد رحلتِ يا أمي فرحلتْ معكِ أحلى أيام عمري.
سأمضي ما تبقى من عمري أعدُّ أيامه عدَّ اليائسِ الفقير، وسأقتطعُ من أوراقِ التقويم ورقةً إثر ورقة حتى تنتهيَ كلُّ الأوراقِ لأصلَ إليك مرة أخرى.
لقد تركت سريرك فارغاً إلا من الأحلام.
تركت أشْياءَكِ في أماكن تنتظرُ منك أوبةً ليستَ تأتي.
تركت ملابسَك التي كنت تختالين بها ويفرحَ من حولكِ.

■■■

اليوم أفتح باب غرفتك وأناديكِ، وأنا أعلم أن ليس من مجيب.
أرنُّ لك على هاتفكِ، وأنا أعلم أن ليس من مجيب.
أعدُّ قطعَ الأثاثِ واحدةً واحدة، وأنا أعلم أنك لن تجلسيَ عليها بعد اليوم.
أبحث في الغرف علّي أرى طلتكِ البهيةَ خلفَ أحد الأبواب.
أحضِّر ورود وأزاهيرَ لمناسبة عيد الأم، وأنا أعلم أن لا أحد سأهديه واحدة منها...
لا أستطيع أن أهديَك شيئاً يا أمي بعد أن تلقفت منك كل الهدايا.
أهديتني صبركِ على هفواتي.
أهديتني عفوك عن زلاتي.
أهديتني إنصاتَك لثرثرتي.
أهديتني إسماعيَ صوتَك دائماً.
أهديتني حسنَ استقبالِك لي دائماً عند زيارتك.
أهديتني الصلة والمودة والتواصل.
أهديتني ابتسامتَك الزاهيةَ التي لا تفارق اليومَ مخيلتي.
أهديتني الحب الكبير.
فما أكثر هداياك لي وما أقل هداياي إليكِ.
سأظل دائماً أفتشُ عن وجهك بينَ كل الوجوه... ومهما امتدت بي الأيام فإني سأبقى أشعر أنني سوف ألقاك بين الناس تنظرين إليّ... إلى أن يحينَ وقت الاستجابة.
أين أنت يا أمي... بحثت عنك كثيراً.
مشيتُ كثيراً وبحثتُ كثيراً وجلست على قارعة الطريق مرات ومرات، وفي مداخل الأبنية في بعض الأحيان، وعلى مقاعد الحدائق المهجورة... كنت أبحث عنك يا أمي.
لكني اليوم اكتشفت الحقيقة التي كانت غائبة عني.
اكتشفت أنني منذ العام الماضي قد خرجتُ من الحياة...
أما أنا فلم أعد موجوداً... لقد رحلت مع أمي...
إنني أرثي بصدق لكل من يعيشون معي ويسمعون صوتي ويقرؤون كتاباتي، ويشاهدون محاضراتي، ويرونني أتحرك وأمشي...
أرثي لهم جميعاً لأنهم لا يعلمون أنهم يعيشون مع ميت، ويتعاملون مع جثة...
ولو أدركوا ذلك لملئوا رعباً، ولتراكمَ الخوف في نفوسهم، ولفرّوا بعيداً عني...
ومعهم كل الحق في ذلك ؛ فالميت يُرعب، والجثة تُخيف... وخاصة إذا كانا يدبّان على الأرض.
اعذريني يا أمي... اعذريني، فلقد ابتعدت يدك عن يدي، يدُك التي كانت تعلمني الكتابة وتعطيني أسبَاب الحياة...
اعذريني أن جاء أسلوبي فجاً، وحديثي مضطرباً، وكلماتي شاحبات، وجملي شاردات... فقد ماتت معلمتي الأولى ؛ ماتت أمي.
اليوم أراك غير راضية عما خطَّتْ يدي... وكيف لا يَتيه رأيي يا أمي، وكيف لا يضيع الأسلوب، وكيف لا يشتّ فكري، وكيف لا يتشتت قلمي... كيف لا أضيعُ ولا أتيهُ بعد أن غابت عن يدي يدٌ حانية... يدٌ طالما قبّلتُها وغرقت في محاولة رضاها... يدٌ طالما وجهتني ورعتني وعلمتني ودربتني...
فمن لي بعدك اليوم يا أمي، من لي بعدك؟
اعذريني يا أمي، اعذريني... عودي إليّ أو أعيديني.
ألا ليتني أخسر الدنيا كلها ويكون عندي أم.